

قابليات العناصر البشرية

للدكتور جواد علي



نشر الكاتب السياسي الفرنسي « كراف كوينو » Graf Arthur Gobineau كتاباً في أربعة مجلدات ظهرت بين عامي ١٨٥٣ - ١٨٥٥ بعنوان « عدم مساواة العناصر البشرية » : Essai sur L'inégalité des races humaines : فأثار على مؤلفه سخطاً شديداً ولا سيما من الهيئات الكاثوليكية وأنصار مبادئ الثورة الفرنسية ، كانت نتيجته طرد الرجل مراراً من السلك الدبلوماسي الذي كان يفتسب إليه .

وقد استقى كوينو آراءه من مصدرين : مصدر التنبع والبحث الشخصي الذي قام به خلال تمثيله السياسي للحكومة الفرنسية في طهران والهند والبلقان ، ومصدر العلم الطبيعي الذي طنى إذ ذاك وتنب على الطريقة القديمة باعتماده على التجارب والاختبارات . فقال باختلاف الأجناس وتباين العناصر البشرية كما هو الشأن في النباتات والحيوانات وقد كانت هذه نظرية قال بها العالم الألماني ألاترو بولوجي بلومباخ (Blumenbach) (١٧٥٢ - ١٨٤٠) ، والعالم الفرنسي كوفيه Cuvier (١٧٦٩ - ١٨٣٢) . غير أنه زاد عليهما بنظريته في اختلاف القابليات البشرية والإنتاج المدب والثقافي ، فوصل إلى أن التاريخ البشري والحضارة البشرية نتيجة عقلية واحدة ، هي العقلية الآرية التي تشمل الشعوب الأوربية والهندية الأوربية . ويخص من هذه الشعوب أيضاً الشعوب الجرمانية بأعلى القابليات في الاختراع والابتكار والسيادة والإرادة والزعامة في جميع نواحي الحياة^(١) .

وكانت أول أرض أجابت هذه الدعوة هي الأرض الألمانية التي بدأت تنمو فيها الروح القومية ، وتظهر بأجلى مظاهرها ، ورسالة الفيلسوف الألماني فخته Fichte بعثت فكرة القوميات في أوربا وهيأت الجو ولا شك لثل هذه الآراء . وكذلك فلسفة ميكل Hegel الذي قسم العالم إلى أدوار بدأ فيه بالدور الشرق وانتهى بالدور الجرمانى الذي هو في نظره خير

(١) انظر كتابه في اللغة الفرنسية وكذلك كتابه في اللغة الألمانية بعنوان - Die Ungleichheit der menschen- rassen 1935

الأدوار العالمية وأكلها . أضف إلى ذلك كتابات المؤرخ الألماني الشهير « ترايشكه » ، والكاتب الاجتماعي الوطني فردريش جان Friedrich Jahn وغيرهم ، والوحدة الألمانية التي قام بتأسيسها بسمارك ، وآراء نيته في القوة وتعجيدته للحرب

ومن أشهر من تأثر بهذه النظرية الكاتب الإنكليزي الألماني H. St. Chamberlain شامبرلين ١٨٥٥ - ١٩٢٧ مؤسس الفلسفة النازية الأولى وأول فيلسوف يعتبره أتباع هتلر من بين صفوفهم . والرجل مع أنه إنكليزي يختلف عقلية عن العقلية الألمانية ، تأثر بالمحيط الألماني وهجر وطنه وترك لغته وغدا ألمانيا يخلص لألمانيا ويدافع عنها ويطمح على الإنكليز وقساوتهم في معاملة الألمان في الحرب العظمى . اتخذ هذه النظرية قاعدة له في جميع أبحاثه ومقياساً يقيس به للعالم طراً . وفي كتابه الشهير « أسس القرن التاسع عشر » الذي ظهر في سنة ١٨٩٩ Grundlagen des 19 Jahrhunderts يحمل أفكاره . وقد ترجم إلى لغات عديدة وطبع عشرات المرات

يرى في كتابه هذا أن الحضارة البشرية من أولها إلى آخرها نتيجة العمل الجرمانى الآرى . وكل حضارة ظهرت أو بقعة ازدهرت لا بد أن يكون للمنصر الآرى ، وعلى الأخص الجرمانى ، يد فيها . فهو في بحثه كالفاحص الكيميائى يحاول تحليل الحضارات ليجد المنصر المسبب وهو المنصر الجرمانى الذي خص من بين الشعوب بميزة هداية البشرية والقيادة العالمية . حتى الكتابة أو الأرقام يرى أصلها من الجرمان ومن الجرمان انحدرت إلى الشرق . وعلى ذلك ففكرة كونها شرقية خطأ لا يفتقر . وكذلك آراء العلماء في أن الحضارة أصلها من الشرق لا يرى لها مبرراً ولا دليلاً . والشعوب الأخرى كلها مقلدة لم تنتج من عندها شيئاً . والحضارة العربية التي يراها ظهرت صدفة كسائر الحضارات السامية إن جاز تسميتها حضارة هي صورة ظاهرية لعمل آرى مكتوم^(١)

أثر كتاب شامبرلين في الأوساط الألمانية أثراً كبيراً ولا سيما في الأوساط السياسية منها والأوساط الشعبية والوطنية المتطرفة ، إلى درجة جعلتها تتمتع أن هنالك مهمة واجبة تقع على عاتق ألمانيا الجرمانية ، وهي مهمة قيادة العالم وحق الإشراف عليه ، مهمة تكاد تكون سماوية . ومحدثنا بعض المصادر أن القيصر الألماني كان معجباً جداً بهذا الكتاب أعجاباً وإعجاب ولا سيما بمقيدة الزعامة الألمانية والتبشير

(١) انظر كتاب Die Grundlagen des Neumehten Jahr-

hunderts ج ١ ص ٤٤٩ مادة ٣٧٩

و Rosenberg و Günther و Claus و Othmar Spann و Lenny و Scheidt وغيرهم استفادوا من الفرصة وحلوا على اليهودية والماسونية والشيوعية حملات شمواء موجهين نظر الألمان إلى هذه الناحية الحساسة لتمهيد الحكم للدولة الألمانية الثالثة وإعادة حلم الدولة الألمانية المقدسة

غير أن هنالك جماعة من الفلاسفة شعرت في نفس الوقت بتدهور ألمانيا ووجوب إعادة مجدها. غير أنها رأت تحقيق ذلك عن طريق آخر وهو طريق الثقافة واللغة بتحويل العناصر الغربية والقوميات إلى عنصر ألماني واحد مستدلة على ذلك بأدلة أخرى ساخرة من خف الرأس وتركيب الجسم مستدلة بالشعب الأمريكي الذي كوّن له خف رأس جديد لا هو انكليزي ولا هو ألماني ولا هولندي ولا فرنسي، وباللغة التي يدافع عنها ويحاول نشرها مع أن أصله قد يكون من البلطيق أو السويد أو ألمانيا أو غيرها، وكذلك باختلاف شكل الفلاح الألماني وتركيبه عن سكان المدن الألمان، وكذلك أصحاب المهن، وكذلك الإنكليز الذين هم من عناصر مختلفة، ومع ذلك، فقد أصبح لهم خف رأس مخصوص، متخذ في الأرض والمحيط عاملاً مهماً في العنصرية والقبالية البشرية^(١). وغائبهم من ذلك غاية وطنية كذلك، وهي ربط اليهود والألمان الذين في الخارج، وتجنسوا بمجنسيات أجنبية عن طريق الثقافة واللغة، وتكوين ألمانيا عظيمة بدلاً من تفكير هؤلاء، وجلب السخط العالمي العام على الشعب الألماني

غير أن استيلاء هتلر على زمام الحكم قضى على كل معارضة طبعاً للعنصرية، وحرّم أي كتاب يعارض العقيدة. وأخذ Günther يصنف للألمان العناصر الموجودة في ألمانيا، فتوصل إلى وجود خمسة عناصر أصلية وخمسة أخرى فرعية في الدماء الألمانية ولم يتوصل إلا إلى نسبة تقدر بآتين في المائة من الدماء الجرمانية الشمالية النقية. ولكن هنالك مع ذلك اختلافاً أيضاً في التقسيم: هل تمسح الظاهر الخارجية والتركيب العضوي للجسم أساس التقسيم، أو العوامل الروحية والنفسية فقط أو كلاهما؟ فظهرت آراء للأستاذة: Claus و Scheidt و Lenny و Fischer وغيرهم. وقد أعدت لأجل ذلك معاهد خاصة ومستشفيات

(١) أنظر كتاب « سقوط الغرب » المشهور للفيلسوف شبرنكل Oswald Spengler الذي أحدث أكبر ضجة في أوروبا يوم نشر في عام ١٩١٨ بعنوان Der Untergang des abendlandes وكذلك كتاب Schmidt Roher المنون mutter Sprache

بالدين الجديد، على أساس القوة والسيادة التي هي من صفات الجرمان، وأن الكاتب هذا وكذلك الفيلسوف النماوي الاجتماعي Othmar Spann كانا من أهم أبطال الدعوة إلى الحرب قبل دخول ألمانيا الحرب بحجة أن الحرب أساس كل حضارة، ولإثبات أن المنصر الجرمانى هو العنصر الفعال الذي تقع على عاتقه وحده أمور العالم وحقوق التصرف منذ آلاف السنين^(٢)

وفي سنة ١٨٩٤ أسست هنالك جمعية عرفت باسم « جمعية كوينو » لتقوم بإتمام أبحاث هذا العالم. وقد رأس هذه الجمعية العالم ولتمان Woltmann الذي ألف كتاباً عن عصر النهضة في إيطاليا وأبي إلا أن يرجع أصل جميع علماء النهضة في إيطاليا وأبطالها إلى أصل جرمانى شمالي. يعرف هذا الكتاب بعنوان Die Germanen und die Renaissance in Italien, 1905 أعقبته هذه الجمعية جمعية أخرى عرفت باسم: « جمعية العناية بالأبحاث العنصرية » ألفها ألفريد بلوتني Alfred Ploetny أخذت على عاتقها مهمة البحث العنصرى على أسس طبيعية تجريبية لا على الطريقة التاريخية الفلسفية. فمادوا إلى طريقة بلومنباخ Blumenbach وهي الاستعانة بأشكال خف الرأس في تقسيم العناصر البشرية، وهيئة الجسم وتكوينه، وتكوين علم خاص يتفرع من علم الأنتروبولوجى وهي الطريقة التي اتبعت اليوم في ألمانيا بعد سيطرة هتلر عليها وخضوع الجامعة لإرادة النازي وآرائه

راجت عقيدة العنصرية خلال الحرب وبعد الحرب ولا سيما بعد استيلاء اليهود على معظم الكراسى في ألمانيا وتشكيلها المجالس المحلية بعد ثورة شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ إذ حصلوا على أغلبية كراسى الحكم. وهذا ما روج دعوة أنصار العقيدة العنصرية، إذ تحولت إلى دعاية وطنية غايتها تطهير ألمانيا من العناصر الأجنبية بإعادة الأخلاق الجرمانية القديمة، وهي السيادة والقوة، هذه المبادئ التي تنافي المبادئ الأوروبية الغربية الديمقراطية التي حملتها الحرب إلى ألمانيا بطريق اليهودية الحاكمة على ألمانيا ومحاربة كل فكرة تدعو إلى المساواة بين الشعوب والقباليات على حد سواء^(٣). فظهر هنالك أساتذة وكتاب أمثال أدلف بارتلس Adolf Bartels

(١) انظر مجلة Die Gesellschaft لسنة ١٩٢٧. مجلد ١ ص ٩٨ وكذلك خطبة Othmar Spann في جمعية الطلاب الألمان في مدينة Brunn والتي طبعت في سنة ١٩١٣ بعنوان Zur Soziologie und Philosophie des Krieges 1913

(٢) أنظر كتاب Georg Steinhausen الدروف بعنوان Der Politische niedergang Deutschlands 1927

ومختبرات تقوم بالتجارب المختلفة لتكوين علم جديد كسائر العلوم الأخرى إن لم نقل إنه أهمها

ويمكن أن نعتبر هذا العلم الذي تكون حديثاً قطب العلوم طرأ في ألمانيا الحالية ، فعليه أن يقسم العناصر البشرية إلى أصول وفروع ، وإلى أمم منتجة ذات قرابة مع الأمم الجرمانية وصلة ، وإلى أمم كتب عليها ألا تقوم في التاريخ بأى دور أو حدث كالشعوب السامية والحامية وما يتفرع منها^(١) . ووظيفة الجامعة الألمانية الحديثة أن تكيف علومها وفق هذه العقيدة . ولا شك أن تلك مهمة صعبة شاقة ولا سيما في العلوم العقلية منها فالتاريخ يجب أن يقلب رأساً على عقب ، والفنون الأولى ستبدأ بالجرمان وتاريخ أوروبا ، ثم ينتقل إلى التاريخ الآشوري والبابلي والمصري والحوادث التاريخية والحضارة البشرية يجب أن تنزىل غربلة ليتم على العنصر الآرى الفعالم الذي هو بذرة كل حضارة . وتلك مهمة صعبة جداً كما يظهر ، لذلك لا في أسانذة التاريخ خصوصاً المتقدمين منهم سمويات في هذا الفن ، أدت إلى إخراج معظم مدرسي التاريخ من الجامعات وإحلال عناصر جديدة من الشباب محلهم . وكذلك قل عن الفلسفة وعلم التربية والاجتماع والاقتصاد وغيرها بل حتى العلوم الطبيعية منها يجب إهمال أعمال وأسماء الأسانذة الذين ليست لهم صلة بالمرق الآرى أو نسب

أساس الحضارة العالمية والمدنية وكل إنتاج بشري عقلي أو مادي هو « الدماء » فعلى الشعب الآرى لذلك أن يحافظ على دمه من الاختلاط بالدماء الأخرى ، إذ متى اختلط بالدماء البعيدة حلت بالشعب الكارثة العظمى وذهبت السعادة الأبدية إلى الأبد وفسدت الروح والبدن^(٢) ، وسقط المنتصر القوى إلى أسفل درجة من الضعف والاستسلام^(٣) . وعلى هذا وضمت قوانين « نورنبرك » في منع أى آرى في ألمانيا من الزواج بغير الآريين مهددة المخالف بأقسى العقوبات ، وكذلك في طرد نصف الآرى ، أى الذى ينتسب إلى أب أو أم غير آرية ، أو ربع الآرى أى الذى يتحد من جد أو جدة غير آرية — من الخدمة لفساد الدماء في مثل هذه الأجسام

(١) أنظر إلى كتاب هتلر (كفاى) Mein Kampf في مواضع مختلفة ، وإلى كتب روزنبرك وكوبلز وكنتر وغيرهم
(٢) انظر كتاب (كفاى) لهتلر ج ١ ص ٣٢١ وكتاب Werner Alfred Rosenberg Der mythos Siebeath Hitlers Wolleus ج ٢ و ٣ و Günther وغيره
(٣) انظر نفس المراجع وكتب الوطنية الاشتراكية المختصة بهذه الموضوعات

برى معارضر هتلر والنازية في عقيدة المنصرية هذه فكرة « الجبر » فإدام الدم هو المنصر المنتج للحضارة فلم إذا هذه المدارس وتلك الجامعات ، ولم تلك النفقات الباهظة التى تنفق في سبيل تربية الأحداث ؟ ومن الغريب أن هتلر ينمى على اليهودية قولها بنظرية الشعب المختار والنازية نفسها تقول بهذه الفكرة باختيار الشعب الجرمان وحده بين الشعوب وتفضيله على الشعوب الأخرى بالإنتاج والعلم والابتكار

معالجة مشكلة الدماء محل كل مشكلة ، ولذلك يجب تقوية الجسم والحفاظ على الدم فيه نقياً سالماً . ومتى حوافظ عليه حوافظ على الحضارة العالمية والمدنية البشرية ، والسيادة الأوربية . الحضارة هى وليدة الدماء ، والقوة هى وليدة الدماء ، والجمال والفن كذلك هذه هى فلسفة الوطنية الاشتراكية ، تجمل الروح وليدة المادة . ومن الغريب أيضاً أن الشيوعية التى يقاومها هتلر في كتبه تجعل العوامل الروحية مصدرها المادة ، مع أن هتلر وروزنبرك يعتمدان في آرائهما العالمية ووجهة نظرها الفلسفية على الروح

بين هذه النظرة وبين مبدأ الأوجينيك Eugénik Eugénetik قرابة عظيمة . والوطنية الاشتراكية في نظرتها المنصرية مدينة لهذا المبدأ أيضاً . القواعد التى وضعها العالم الفرنسى Francis Galton (١٨٢٠ - ١٩١١) والتي أطلق عليها الاسم المتقدم لأجل تكوين أجيال صالحة بمعالجة الجسم بقواعد عرفت « بقواعد كالتون » Galtonische regel ، والتي تعتمد على الوراثة في الدرجة الأولى ونظريات mendil (١٨٢٢ - ١٨٨٤) و Jean Lamark و Gre gor mendil (١٧٤٤ - ١٨٢٩) وداروين .

أراد نيتشه الفيلسوف الألمانى في زمانه إصلاح الأخلاق بالإصلاح العضوى لتقوية الأجسام وتقوية العقل والإنتاج بالطرق المباشرة كالأكل والرياضة لا بالنظريات الأخلاقية والأدبية العقيمة . وأراد فيو برباخ Feurbach إصلاح الإنسان بالأكل وطرد الدين . وأرادت الشيوعية إصلاح المجتمع بتقويض الأنظمة القديمة ، وأراد هتلر بمش الجرمان والسيادة على البشر بتقوية الدماء . وكل له في هذا العالم مذهب ورأى ، ولكل غاية ومثال . ولكن لكل شخص أن يقرأ ويرى كما يرى في دور الصور المتحركة دون أن يسخر من كل رأى أو يضحك من كل فكرة .

ميراد على
خريج جامعة هامبرج بألمانيا